

«في شمسي دوار»

# صوت من الجيل الجامع

بقلم أحمد طه الرفاعي

ان يصنع شيئاً للحاق به ، انه محتظ كالمومياء في زوايا المعاهد والجامعات يتحدث ويتحدث ثم ينتصب عندما يبرد الجرح ويثور الالم ليعلم انه قد نصب :

مصنفا الزمان ..

مصنفا الاحاديث في مذبح الركن ..

قلنا : نصبنا

تسابقنا .. في الصقيع الممدد فيها ..

العقارب ..

حتى تعبنا

ان الجامعة هذا المشع الحضاري الكبير لم يعد قادرا على احتواء هموم شبابنا ، وان كل ما يكسبه هذا الشباب هنا لهو صدقات على الموائد تكرر عليها الاعوام ويتفرق الصاحب مخلفين أعقاب لفافات مقتولة على الموائد وأبد ملوحة في الخاطر كل جناح يقصد أفقا نائيا ، ملوحة دونما أمل بقاء جديد :

سأروي

اذا انكا الليل .. فسي خاطري

في قراري

سأروي

وان في ضباب الطريق السى الريح ..

يومنا

تناسنتي الريح ..

أروي

عن الاصدقاء القدامى ..

مضوا

نشروا الاجنحه

اشاروا مع الريح ..

في المنحنى

وزفتهم الطرق الجامحه

والنهاية الحزينة المتفجعة تبقى عالقة متأرجحة في البال تأرجح الامواج القلقة التي صلب عليها لياليه الطوال فهي جلاده الامين الذي لا يسام :

سأروي لكم اصصدقائي القدامى ..

احاديث وجد

بصدري قديمه

عن البحر

عن عابر صلبتسه الرياح عليه ..

معي

وجلدانا الليل ..

شيخ

طويل

عريض القفا

واذا كان لا يقوى على الفراق الممض فسيفقى يتحسس حبله اطراف اولئك الاصدقاء يتلمس شخصهم في عمة لياليه ويمس يديه ليقول لهم ويقول بعد ان رحلوا ليثقت الدم العالق في صدره ممض العينين لا يريد ان يفتحهما ليرى نفسه وحيدا :

سأغمض عيني

« ان الحضارات التي تنضج لا تموت قط بأهوال الخريف ، وانما تبدل ريشها ، والجمود وحده هو الذي يهدد بالخطر . » . بمثل هذه العبارات كان ينهي كلمته سان جون بيرس من على منصة تكريم الشعر فيه . واذا كانت شجرة الشعر العربي قد أعطينا ذات يوم خضرة وظلا وفي يوم آخر طلعت الشمس لنجد الشجرة هيكلا تفزل اخر اوراقه الصفراء هاوية الى الارض زمن عصور الانحطاط ، فلا بد اذن من ان تبدل الشجرة ريشها - كما يحلو لبيرس ان يقول - ولا بد اذن من هذا الاوراق الجديد في الشعر العربي .

وما نسيت يوما تلك الرايات الشعرية القديمة مركوزة فوق رأسي ورؤوس الاخرين تشدني الى الصحراء حيث يتعانق الشعر والتاريخ ، ولم أنكر شيئاً في الشعر انكاري للاصوات التي تحاول الفصل بين شعرنا وتاريخنا ، بين شعرنا وحياتنا في كل حين .

وقصتي مع الشعر الحديث تبدأ خلال ندوات شعرية كنت احضرها هنا وهناك في بعض الامسيات ، كنت اخرج والرداذ يفصل الطرقات وصدى الكلمات العذبة تنطرح مجروحة كسلى في دربي . أهو الشعور بالحزن أو التفريغ أو الكسل لا أدري . ولكنني كنت اشعر بخفة لدى سماعي لهذا الشعر المترنج ترنج السكاري ، هذا شعر لا يعتمد على قرع الحروف النحاسي للوصول الى عتمة نفوسنا ، لا يعتمد على السقوط الراسي السريع كما يسقط البرد في قاع البئر ولكنه ينسل جانبا انسلال التبع . ولست أزعم ان كل ما هو حديث من الشعر يروق لي ، لانني لا أميل الى الفلسفات الجافة التي انتهى اليها بعض رواد الحركة الشعرية الحديثة ، فانا أحب أن أقرأ وأتمتع وأسمع وأستسلم ، أحب ان اجلس في ركن لا يعيش كل روح شعري عن طوابعه ورضى ، لا ان اقرأ شيئاً لا يعلم ما هو الا الله والراسخون في العلم . « في شمسي دوار » لفواز عيد . اعترف مسبقا ان اسم هذه المجموعة الشابية قد اجتذبتني منذ ان اعلنت الاداب عنها خاصة وانني قد استنمت الى شاعرها ذات امسية وأعجبني انشاده لانني احسست بصوته حزينا يحمل جوع شعب كامل ترك وطنه وألفى نفسه جائعا على كل درب وتحت كل مصباح ليؤدي فريضة طواف صامتة مجهولة . قرأت المجموعة للمرة الثانية لاحاول الكتابة ، فالتمة الشعرية شيء والبحث عن مواطن هذه التمة شيء آخر .

الى أين وصل هذا الجيل المتفتح تحت هذه الشمس الدائخة ؟ وهل استطاع ان يعبر عن نفسه وحاجاته في شعره ؟ أم ما زال يخبط على غير هدى ؟ وماذا يريد هذا الشباب منا ؟ لماذا لا يريد الاعتراف بوقار الشعراء البيض في رؤوس الاخرين ؟ لأنه أحس انه مجبر على ان ينظر الى القمم البعيدة اكثر مما ينظر الى نفسه ؟ وان ينكس رأسه راضيا بمعطيات الاجيال السابقة ؟

قد يكون هذا أو ذاك أحد الاسباب التي تدفع هؤلاء الشباب الى الرفض المر والوقوف باعتداد امام ما يريدون الحصول عليه ، وتحقيقه وما يريد له الاخرون من صنع وتحقيق ، فاذا فشوا في احداث الانسجام ارتفعت اصواتهم جاعة غارقة بشيء من الفوضى والقلق والخيبة بالضحك الصاخب حيناً وبالصمت والاكئاب حيناً آخر . انه جيل يفتح عينيه تحت شمس زائفة على عواصف ترتفع في آفاقنا بين حين واخر ، ونكبات مزروعة في صحونا على الحياة الجديدة ، وعندما يكتشف هذا الجيل لا جدواه في حديثه وانزوانه وتفرجه يصحو ليرى ان الزمن ماض لا يلوي على شيء وانه لا يستطيع

اروي لكم اصدقائي القدامى

فظلوا معي

لا تقولوا : كفى .

لقد وقفت وقفة ليست بالقصيرة عند احدى روائع هذه المجموعة - في نظري على الاقل - لانها تاج اختلط فيه الدم بالمش ، والتفجع باللهب ، والغناء في موكب الجنائز .

وقبل اليوم كان الحب سلوى الشعراء يفرقون في وصف لياليه الهائلة وينزلون بأعطف المحبوبة ونهوها ، ومتى أحب الشاعر الحديث هنا عاد ليلتف بشيء أسمى من هذا وأبعد منألا ليهيل على حبه الوانا من « الف ليلة » ومسحات من صوفية الشرق ووجدانه ، ان المرأة عنده شيء أكثر من متعة ، ولكن المرأة الشرقية تحاول ان تفتح نفسها اليوم بانها لا تريد ان تكون حلما يتجلى في لحظات من الاشرار الصوفي الشعري انها تركض وراء البريق ، اذن فالخيبة مفتوحة امام فقر الشعراء :

شهرزاد

شهرزاد

كلما فتشت في بغداد عن قرط وشال°

عن سوار نازل ..

عن خاتم ..

عن قوس فضه ..

قيل : بغداد كوى مفتوحة في عرض دجله°

- ربما خاتمها يسقط من اصبع طفله

فالحب هو ايضا رحلة جائمة ، رحلة خلف مجهول شارد نطلب منه عطاء ، نطلب منه شيئا نجيا به بعد ان اعيانا البحث والطواف :

شهرزاد

ضنت الريح علينا فامحننا

واذا جنناك حيارى

وقصدناك ..

تلوب الخيبة الحرى بعيننا ..

واذا قلنا انتهينا ..

انه الشوق الى المجهول الى ماء علوي نظهر به ادران آدميتنا الى شيء يشبه ان يكون رحلة لطير جائع في صفاء ليال قمرية .

\*\*\*

واذا عدنا الى تحليل ما بين الشباب والشيوخ من تناحر وخصومة وجدنا هجوم الشيوخ يتركز في الدفاع عن اللغة والاوزان الشعرية المتوارثة وهو رأي لا اشك لحظة في صوابه ما دامت غاية هؤلاء هي الدفاع عن اولى مقومات قوميتنا والحفاظ على صلتنا بتاريخنا العربي، وحجة اخرى سليمة يشهرها الشيوخ هي ان بعض هؤلاء الشباب يحاولون القفز عن الحواجز اللغوية بحجة التجديد والابتكار لانهم لم يتسلحوا بهذه اللغة من قبل ولم يتقنوها وفي رأيي ان بعض الاقلام الشابة قد اثبتت حبا للغة وقدرتها على تكييفها لامتناس الانفاس الشعرية دونما حاجة الى ضبط لهذه الانفاس . اثبت حجازي ببساطة كلماته ولفته انه شاعر ، واثبت الصوفي بحرارة كلمته انه شاعر ، وكانت اخيرا هذه المجموعة الشابة علما اخر فوق اقواس الشعر العربي الحديث . ان ما يميز هذه المجموعة عن سواها هو جدتها وصدق النبوة فيها والحزن المنتصب في ارجاء عباراتها .

شباب يقف امام كارثة لا يستطيع ان يفعل شيئا يرى الرياح تنهب كل شيء امام عينيه ولكنه مفلول لا يقوى حتى على الصراخ .

وصاحب هذه المجموعة نموذج لهذا الشباب العربي الشريد . ان بيوت قرينته الضرورة على شاطئ البحيرة قد تهدمت وحرم منها يعيش بلا وطن بلا استقرار بلا غاية ، يمضغ حزنه وضياعه وصمته وينقلب الى مراقبة الناس الذين يحاولون ان يعيشوا ليلهم كاملا ، يراقب ليعيش ولكن الجرح لا يرحم :

ترحف الانعام من كهف .. لكهف

وعروق البوق تلوي

وتدب النسوة الحقماء فيهم ..

ثم تلوي

ويرش الكهف في الاهداب ألوانا سخينه°

توثق الاقدام بالبوكر .. فلا تدري :

متى كانت رزينة°

بعد هذه الرقصة المانجة تحت الالوان الساخنة يتسرب السرود والعياء وينتهي عمل المخدر وتثور الجراح عنيفة قاتلة ويفيق الشعراء على صقيع تجربته ويذب الذعر فيه من جديد :

ليلة ضاعت ..

وتتلوها الليالي

بإسارات ..

أعين جوفاء يقعي الذعر فيها

راحل الانعام يفرينا .. ولكن

قد عيننا

تصبت اقدامنا ..

في الكهف ريح بارده° ..

وارتمت منهارة في الليل عين جامده° ..

انه يتطلع الى الخلاص الى ما يفصل احزانه وجوعه وسواد لياليه وانطواءه . انه بحاجة الى ما يبعث حياته جديدة ناصعة ، الى قطرات مطر ترن في قرارته تزخ على وجهه تعيد الى نقاطيمه المخوتة بعض نصارتها وشبابها :

الله ما اصفاك !

انت اذن هنا ؟!

الله ما اصفاك !

يرشح في صميم العظم دفؤك .. يا مطر°

لا بأس ..

جدران مفرجة

وانسجة الكروم حزينة

لا بأس ..

ينسفع الغمام على مدى وجهي ..

يليل قامة الاحزان من حولي ..

يزخ ..

يزخ ..

يرشح في صميم العظم دفؤك

يا مطر°

\*\*\*

لقد سجل الشاعر بعض اللفظات الجميلة مكتفيا بالإيماء الوجيه وباللفتة اللبقة . انه يقصيف الى أعمال الشعر الحديث غنى وعذوبة وبكارة ، ففي قصيدته « اندلسية » يفرغ الشاعر مقطعا لوصف الراقصة في معبد الرقص :

مثلما يرعش في ذمر الخريف

الورق

وردة حمراء ..

في بركة ضوء لاهب ..

تتحرق

خطوها الداهل صمت ..

شهقة في اثر شهقة°

ويدر الالق الزاهي ..

على زنبقة الاذرع ..

سحقه°

خبب في الصدر ..

إيماء حيي

ومزامير لعرس وثني .

والقمر السابح بخفر بين أساطير الشرق وغلالته الشفافة ترتفع الاكف اليه ليلة تمه ، لتباركه ، وتدور الاسنة لتتسج حوله وحسول ابنة عمه من النجوم أساطير وثنية كثيرة . لا ادري لماذا احب ان أترنم كثيرا بذكر القمر ، لأنه يذكرني بأصوات فلاحي قرانا تتناهى شجيرة مجروحة أيام الحصاد تحت صفائه أم لأنه يمثل رمزا من رموز الوصول

والاطمئنان . ولقد اختار الشاعر عروس بادية الشام « تدمر » ليمجن من طين تاريخها ، تاريخ انفسه زنونيا وكبرياتها رمزا لنكبة وطنه السليب . واذا كنت قد فهمت القصيدة فان القمر يمثل الامسل للاطفال الذين نهب الرومان بلدتهم وهدموا بيوتهم ، ان القمر صديق لهم ثريا معلقة في سماء عيونهم ترعش لاحزانهم ودموعهم :

ومر البدر في صحراء اعيانهم ..  
فيلها

وفي عينين سوداوين ..  
طافت غيمة  
دمعه

فأشعل في قرار سوادها

سمعته

ولكن الحوت يطارد القمر محاولا اصطياده وابتلاعه :

- احبائي

روى العراف .. أمس ..

على الطريق

حكاية الحوت

اذا يقنات بالقمر

وقال :

يظل يبحر خلفه ..

وينوش اطرافه

ويطعم للصفار الجائعين ..

هناك ..

اصدافه

جميلة هذه الرموز التي جمعها الشاعر واستطاع اداها اداء شعريا محافظا على التسلسل المنطقي الذي يتطلبه المزج بين التاريخ والاسطورة من جهة والشعر والاقصوصة من جهة ثانية ، واخيرا من ناحيتي الوزن الشعري الهادئ والربط المحكم بين كافة هذه العناصر بحيث تكون مجتمعة قابلة للتوجيه الى تاريخنا القديم مرة والسى التاريخ الحديث مرة ثانية .

ان قدرة أي شاعر تجل في مهارته على خلق الكلمة الشعرية والعبارة الموحية في احياء الموات من طين الانسان الشعري .  
الكلمة الشعرية هي التي تخلق نابضة شفاقة بحيث لا تدس وجهها السميك بيننا وبين ما نريد ان نعبث عنه - كما يحلو لبرغسون ان يقول - بل تعود براءة كائنة تعاورها الناس والزمان فانطفا القها ورينتها حين امتلات مسامها بالدهن اليومي ، ويأتي الشاعر احييرا ليمسحها براحتيه وليطهرها بلهبه .

هذا ما استطاعت المجموعة ان تثبته ، ان تثبت قدرتها على اقتلاع الكلمات بجنورها من مكانها اليومي لتجد نفسها في حديقة الشعر :

من قديم كان يحكى

من قديم .. من قديم

قصة تثبت بين القصب المتعب ..

تمو

عند اجفان السواقي المثقلات

يرتخي من حولها الصفصاف ..

يهرم

ومع الريح ليالي الصيف تحبو ..

تتكوم

الى جانب محافظتها في هذه القصيدة وبعض القصائد الاخرى على الايقاع الموسيقي الذي تهواه الاذن الشرقية ، فهي تردد بعض آيات القصائد تردد الاطفال في الموشحات :

فتعرت في حقول الليل قامات القصب

ورذاذ من عيون النجم صلى ..

وانسكب

وتنتهي القصيدة بهذه الايات الجنائزية الوقع :

وتجوس الريح اقواس السكينه ..

وتروي من جرار الليل قامات القصب

وبدق النهر في الشيطان اجراسا حزينه

ومن مرارة الغريب الصانع في اسواق المدينة وفي دهاليز العامل يدخلها الرجال قبل بزوغ الشمس ويفسادونها عندما يهبط الليل لتتذف بهم بعد أيام واحدا بعد واحد جثنا معطوبة الرئتين غريبة الملامح الى مقبرة نائية ، من هذه المرارة كانت قصيدة « الطريق الى المقبرة » . ففي صبيحة العيد والصقيع يحاصر انفاس النوافذ المفلقة والدروب خالية يقصد جماعة مقبرة نائية لا يعرفونها ويصادفهم شيخ عائد لتوه من المقبرة فيسألونه :

- يا عم ..

أين الدرب نحو المقاب ؟

نحو الشارع الغربي

نحو المقبره

قالوا :

« نمر بحيكم هذا بعطار باوله ..

وأخره بقايا قنطره »

وعندما يسألهم الشيخ عن أكاليهم التي يحملونها ومن أي بلاد هم

يشورون في وجهه :

ماذا تخبىء للغريب عيون دوركم ؟؟

.. ترى ماذا تخبىء للغريب ؟

نمضي .. وتخطف كل زاوية صديقا ..

أو حبيب

انهم غرباء بسطاء لا يريدون شيئا بل يذرعون ايامهم بحثا عن كوخ

واطفال وامطار .

وننام ..

ملء عيوننا شوق لزرعه

وكوخ عامر بالصبيبة اللاهين

بالامطار

صوت الديك خاط ظلما بنا بالصبح ..

وانتخر الزمان

\*\*\*

ولا اود ان اختتم هذه الدراسة قبل ان اتحدث عن الاوزان الشعرية في المجموعة فاوزانها طويلة في اغلب القصائد . ففي القصيدة الاولى « الابواب » تختفي القافية تماما وتظهر عوضا عنها وحده النشيد بحيث نستطيع ان نجتمع هذه القصيدة في ثلاثة ابيات فقط « طارق - تمثال - المطر » .

وفي قصيدة « لا نقش للغرباء » نلمح مثل هذا البيت الشعري

الطويل : اواه

كم اشتاق : لو اطويك ..

ملء سواعدي

اطويك .

انهل نهلة الصديان من حفيك

اعصر توت حلمة كل نهديك

مثل الموت

اعصر كل نبض في دواليك الحرون

وفيه خمس عشرة تفعيله من الكامل وهذا القدر مسن التفعيلات

يحتاج الى مقدرة على اطالة النفس الشعري ..

\*\*\*

انه صوت من جيل عربي جائع برهن فيه الشاعر على ان شبابنا قادر على العطاء اذا فتحت امامه السبل ولا يحتاج الا الى الكلمة الصادقة الخيرة .

ان نظرة الى عناوين قصائد المجموعة « الابواب - شهرزاد -

العقب والمرايا - الفرسان - اندلسية - الاطفال والقمر - الراوي -

لا نقش للغرباء » تحمل وتبين جودة هذه المجموعة الشابه وخصب عطائها.

احمد طه الرفاعي

جامعة دمشق